في ذكرى اختطاف المهدي بن بركة:

عبد الله العروي ناقدا لـ«فكر» المهدي بن بركة

يحيى بن الوليد*

■ تتعدد مناحي عبد الله العروي في التعامل مع الإنتاج الفكري العربي، أو بتوصيفه الأثير «الإيديولوجية العربية المعاصرة»، وكل ذلك في منظور تتجاور فيه «المقاربة القومية» مع «المقاربة العالمثالثية» و«المقاربة الكونية»، ودون أي نوع من الانزياح عن طريق «النقد الموضوعي الصارم والجاد» الذي دأب عليه على مدار عمره الأكاديمي والثقافي... وباعتباره ـ وفي المقام الأول ـ «مؤرخا» همه الأساس رصد «إخفاقات» المثقف و«تعثرات» الدولة ما بعد الكولونيالية. وبما أن «ملاحظاته»، وبلغته، «تنطبق أساسا على المغرب الكبير وبالخصوص على المغرب الأقصى»، وأنه إذا ما «عمم» فـ«لأن الموضوع يقتضي ذلك التعميم («العرب والفكر التاريخي»، ص212)، لا يبدو غريبا أن يشدد على المهدي بن بركة الذي انخرط ـ وبالكلية والصرامة ـ في «الإيديولوجية المغربية المعاصرة»، بل وأن يكون هذا الأخير ضمن أسباب تأليف كتاب «الإيديولوجية العربية المعاصرة» (1967) على الرغم من الإحالات المعدودة إليه. وإشارات العروي لهذا الأخير، وبدءا من «الإيديولوجية العربية المعاصرة» إلى «خواطر الصباح» (2002)، تنطوي على أهمية بالغة، إضافة إلى أنها تندرج ضمن «نسق» يختلف عن نسق الكتابات التوثيقية والصحافية التي اعتنت ـ وبطريقتها المخصوصة ـ بموضوع المهدي بن بركة. ومن هذه الناحية كثيرا ما يتم التشديد على أهمية كتابات الصحافي (المغربي) عبد اللطيف جبرو ومن قبل مفكرين اهتموا بالموضوع نفسه أمثال محمد عابد الجابري ذاته والمهدي المنجرة وسواهما.

ولا يخفى أن كتاب العروي السالف كان له تأثير قوي في الثقافة العربية المعاصرة على الرغم من ترجمته العربية التي لم تخل من «مزالق» يمكن أن نرد جانبا منها إلى صعوبة «التحليل المجرد» الذي يستند إليه العروي في «تحليلاته». ومصدر تأثير الكتاب طريقته الصارمة في دراسة «إخفاق النخبة المفكرة» في الفكر العربي عامة والمصري منه خاصة. يقول عبد الله العروي في سياق الحديث عن ظروف تأليف «الإيديولوجية العربية المعاصرة»: «كنت أثناء اشتغالي بـ«شفاء السائل» (لابن خلدون) أفكر في إخفاق رجل آخر، ذي مؤهلات كبرى وهو المهدي بن بركة، كان ألمع شخصية أنتجتها الحركة الاستقلالية المغربية، حيوية وإخلاصا ونفاذ فكر، ومع ذلك أخفق في جميع محاولاته لإعادة تنظيم الحزب وإعطاء مضمون للاستقلال السياسي وتغيير مجرى انزلاق المغرب في طريق التبعية والركود. ثم من إخفاق إلى إخفاق آخر اضطر إلى اللجوء إلى الخارج حيث تقلص نفوذه في الداخل، لم نكن نتوقع آنذاك أن هجرته كانت في الواقع تدق ناقوس الوداع، تعلن أن عهد التطلعات قد خلفه عهد دموي طويل يعرف فيه المغرب إخفاقات متعددة أخرى ـ لكننا كنا قد فهمنا على الأقل أن الشوط الأول بعد الاستقلال قد انتهى ولم يفز به أنصار التقدم وأصحاب الملكات والمؤهلات»... («العرب والفكر التاريخي»، ص 54).

فمن الجلي أن يتأطر تعامل عبد الله العروي مع «فكر المهدي بن بركة» داخل «معطى الإخفاق» الذي يلحقه بباقي المثقفين والزعماء العرب من التقدميين قبل هزيمة حزيران (يونيو) عام 1967 التي ستكشف عن «أزمة الوعي التاريخي والإيديولوجي». وقبل أن نعرض لأسباب ومظاهر «الإخفاق» لا بأس من الإشارة إلى مدخل آخر يفسر اهتمام العروي بابن بركة، إن لم نقل بأنه هو الآخر يؤطر هذا الاهتمام الذي يصعب رصده. ويفضي بنا هذا المدخل إلى «السياسة»، لكن بمعناها «العام» وليس «الحزبي الأدواتي الإجرائي» الذي لا يفسح «هوامش» للمثقف في «تمثلاته الأفقية» التي تنأى ـ في أحيان كثيرة ـ عن «إكراهات التنظيم العنقودية». ومن هذه الناحية فإن العروي يشدد على أن لا «ينسلخ» المثقف ـ ومن حيث هو «ظاهرة حديثة» ـ عن السياسة، لكي لا يتركها «مرتعا خالصا للفكر التقليدي» («العرب والفكر التاريخي»، ص 53). ثم إن العروي بدوره «مهووس» بـ«السياسي»، لكن من غير أن يغرق في السياسة؛ إنه «محلل من بعد» كما قال عبد السلام بنعبد العالي في سياق قراءة الجزء الثالث «حجرة في العنق» (2005) من مذكرات «خواطر الصباح» (جريدة الاتحاد الاشتراكي/ الملحق الثقافي، الجمعة 11 آذار ـ مارس 2005). غير أن السياسة، هنا، بغير معناها الملتبس بالجزئيات والتكتيكات والمناوشات... إن العروي يشدد على «قرارات رجل السياسة» ذات التأثير على مستوى توجيه التاريخ. وفي هذا السياق أمكننا فهم كتابه اللاحق حول «المغرب والحسن الثاني ـ شهادة» (2005)، الحسن الثاني الذي سعى إلى «بناء الدولة» لكن دون أن يكون مستعدا لاقتسام السلطة مع أي حزب أو شخص. وفي هذا السياق يمكن أن نفهم إشارات العروي إلى خصم الحسن الثاني المهدي بن بركة جنبا إلى جنب جمال عبد الناصر وأحمد بن بلة في إطار دراسته لـ«إخفاق» التجارب الثلاث في كتاب «العرب والفكر التاريخي». أجل لم تتح للمهدي أي فرصة... غير أنه لا يمكن استبعاده عن المعادلة السياسية في المغرب، لأنه «لا مستقبل بدون المهدي» كما قلنا في دراسة مطولة حول «خطاب المثقف ـ قراءة في فكر المهدي بن بركة» التي نأمل أن تظهر في أحد الأعداد القادمة لمجلة «فكر ونقد» (المغربية).

وثمة مدخل آخر لرصد العلاقة (الفكرية) بين عبد العروي والمهدي بن بركة وتتمثل في استناد الأول ـ وتحت تأثير أستاذه هيغل ـ إلى «مفهوم الدولة»، وخصوصا من ناحية «دورها الحداثي المحتمل». والدولة ليست «نظام حكم» فقط، وإنما هي «ثقافة» أيضا؛ ثقافة تضمن لها «هيمنتها» الأخرى. ويتصور البعض أن العروي انعطف إلى مفهوم/ مرحلة التفكير في الدولة نتيجة خيبته في «النخبة» ودورها على مستوى «تحديث المجتمع العربي». والظاهر أن مفهوم الدولة في «مشروعه» لا يمكن التأريخ له بالكتاب الذي خصصه للموضوع («مفهوم الدولة»، 1981)، فهو سابق على هذا الكتاب بل وسابق على «الإيديولوجية العربية المعاصرة». إنه وارد في دراساته التاريخية التي افتتح بها مساره الفكري ولا أدل على ذلك من كتابه «الجذور الاجتماعية والثقافية للحركة الوطنية بالمغرب» (1977) الذي تطرق فيه إلى «فشل الدولة المخزنية» على مستوى «التحديث»، وهو ـ في «النزع الأخير» إذا جازت عبارة المهدي بن بركة ـ «فشل عضوي» لا «إرادي». وقد وسع من المفهوم ذاته في كتاب «الإيديولوجية العربية المعاصرة» الذي يعرض فيه لـ«الدولة القومية» التي تلت «الدولة المستعمَرة» والتي فشلت ـ وبسبب من «التعثر» ـ في الخروج من «التبعية».

ولأنه لم يعد ممكنا العمل على استمرار الوضع الذي كان سائدا في الفترة الاستعمارية من جهة، ولأنه لم يعد ممكنا العمل على إعادة إنتاج أنقاض الفترة التي سبقت الاستعمار من جهة ثانية، فإن السؤال الذي فرض نفسه بعد الاستقلال مباشرة: على أي أسس يمكن إنشاء «الدولة الجديدة»؟ وهو ذات السؤال الذي انخرط فيه المهدي بن بركة، لكن بطريقة لا تروق العروي بالنظر إلى ما يشترطه من «تكوين إيديولوجي» وبالنظر إلى «الترسانة المفاهيمية» التي يستند إليها في تدبر دلالات هذا التكوين.

ويمثل نص «الاختيار الثوري» (1966)، وقد كان عنوانه من قبل «النقد الذاتي» (1962)، تتويجا للعلاقة الصدامية ما بين المثقف والسلطة أو «الحكم المطلق القائم» كما ينعته بن بركة على مدار الكتاب، وهو ما أفضى إلى «العنف كأسلوب سياسي» في نطاق «الثورة» كـ«اختيار» يتداخل فيه «التكتيك» مع «الاستراتيجية». غير أن هذا الاختيار لا يمكنه التحقق في معزل عن التفكير في «تهيئة الثوري». وفي هذا الإطار يمكن أن نفهم تشديد المهدي بن بركة، وعلى مدار نص «الاختيار»، على «الإيديولوجيا»: «الإيديولوجيا التي لا بد منها» كما يقول في تنويع من تنويعاتها التي تفضي بنا إلى «الوحدة الإيديولوجية» و«التعميق الإيديولوجي» و«التحضير الإيديولوجي» و«التربية الإيديولوجية»... هذا بالإضافة إلى «التكوين الإيديولوجي» الذي يشترطه العروي. وكل هذه التنويعات من أجل ما ينعته المهدي بن بركة بـ«التنمية الصحيحة» أو«التنمية الوطنية الشاملة». وكانت التنمية في مقدم التحديات التي جابهت مثقفي بلدان «العالم الثالث» في السنوات الأولى من «الاستقلال الاسمي». وكما أن التنمية، هنا، في المنظور الذي لا يفارق حلم «المجتمع الاشتراكي بالمغرب» الذي ظل يراود صاحب «الاختيار الثوري» في سياق التفكير في الخروج من مأزق «التخلف» أو ـ بتعبير العروي ـ «التأخر التاريخي».

وبالنظر إلى «الأسلوب المجرد» الذي ينهجه العروي في تحليلاته لا يبدو غريبا أن يستنكف عن الحديث عن العلاقة التي كانت تصله بابن بركة في باريس والتي كانت ـ كما قيل ـ من بين الأسباب التي كانت وراء فصل العروي من مهامه كمستشار ثقافي في السفارة المغربية بباريس، وبالنظر إلى الأسلوب ذاته لا يبدو غريبا أن يستنكف عن ذكر التنظيم المتمثل بـ«الاتحاد الوطني للقوات الشعبية» الذي أنشأه المهدي بن بركة في نطاق ما يعرف في تاريخ الأحزاب المغربية بـ«انتفاضة 25 يناير 1959».

فالأهم، بالنسبة للعروي كما يبدو، هو «الفكر» الذي كان يتحرك في دائرته الرجل، الفكر الذي كان قرين الإيديولوجيا للخروج من «التخلف» على مستوى الداخل ولمواجهة «الاستعمار الجديد» على مستوى الخارج (القارات الثلاث). الإيديولوجيا التي شدد عليها العروي، بدوره، وبفهمه الخاص، في سياق الحديث عن دور النخبة على مستوى الوصل بين الثقافة والتاريخ، وكل ذلك في منظور «التاريخانية» القائمة على البحث عن «حلول» على أرض التاريخ ذاته موازاة مع الإيمان بـ«تقدمية» هذا الأخير و«فاعلية» المثقف أو المثقفين ضمن هذا الإطار. وفي هذا الصدد تبدو «الماركسية»، بالنسبة لـ«مثقف العالم الثالث»، «اختيارا» لا يعلو عليه أي اختيار آخر.

وبالنظر إلى «تكوين الغربي» لا يبدو غريبا أن يعانق المهدي بن بركة الماركسية، لكن بأي فهم وأدوات؟ يجيب العروي، هنا، قائلا (ونستحضر نصه على طوله لأهميته ولعدم قابليته للاختزال): «لوحظ عليه (أي المهدي)، في السنوات 1955 ـ 1960، أنه كان يستعمل نظريات، وموضوعات ماركسية لتفسير وتبرير قراراته، ومواقفه السياسية (مثلا حول دور الحزب المسيطر في البلاد النامية، حول ضرورة الاستيلاء على الحكم لإنعاش وتنظيم الحزب، حول ضرورة الانضباط والوعي، حول ضبط مفهوم تضامن الشعوب النامية ضد الاستعمار، ومضمون الاستعمار الجديد أو المقنع، إلخ). كان لجوؤه إلى الماركسية من نوع خاص ـ يتوصل هو إلى النتيجة عن طريق تحليل مسلسل ومنطقي، لكن في العرض يقدم النتيجة جاهزة كأنها من بديهيات «العلم» العصري التي يجب أن تقبل بدون مناقشة. فلا يعطي في العرض مع النتائج طرائق الاستنتاج ـ وعندما كان يلاحظ عليه هذا الأسلوب الناقص، غير المكون في الواقع لأطر (كوادر) الحركة كان يتجنب الموضوع أو يقول ان الوقت لم يحن بعد» («العرب والفكر التاريخي، ص55). ويضيف العروي أن أغلبية الزعماء، في الوطن العربي، أو خارجه كانوا يقفون الموقف نفسه من التكوين الإيديولوجي (ص56). ويبقى المشكل، في جانب كبير منه، في «العلم» ـ الذي أشار إليه العروي قبل قليل ـ وكما يفهمه «مثقف العالم الثالث». وكما لاحظ أنطونيو غرامشي ـ الذي كثيرا ما يستشهد به مثقف العالم الثالث ـ فإن العلم «نشاط سياسي» إلى حد بعيد؛ لكن هذا لا يسمح باختزاله في السياسة ـ وإلا فإنه سيعجز عن «إنتاج حقائق ذات صلاحية شمولية» (أسئلة علم الاجتماع، بيير بورديو، ص 32).

أجل ثمة مفهوم محدد يصل، في نظر العروي، مثقف العالم الثالث بماركس هو مفهوم التأخر التاريخي (العرب والفكر التاريخي، ص173)، مما يجعل اعتناق الماركسية أبعد عن «الدعاية». غير أن ذلك لا يحول دون القول بأن الاهتمام بماركس لا يعدو أن يكون «استغلالا تكتيكيا...» (ص171). فالمشكل يقع في صميم «التكوين الإيديولوجي»، بل ثمة تخلف من نوع آخر هو «التخلف في مجال التكوين الإيديولوجي» كما ينعته العروي في حوار معه («معهم حيث هم»، ص138).

ويفسر العروي، في موضع آخر، إخفاق المهدي بن بركة بـ«التيار الناصري» الذي ارتبط به: «المهدي كان غربي الاتجاه، قلبا وقالبا، لدوافع شخصية واجتماعية وثقافية، تعرف إلى المشرق في فترة متأخرة فلم يفهم تعقيداته ولا انتفع به. وكان في ذلك حتفه. يمكن القول إنه كان، بكيفية ما، ضحية التيار الناصري» («خواطر الصباح»، الجزء الأول، ص142). جمال عبد الناصر الذي يعد أول رئيس مصري «يحول مصر إلى بلد عربي وعالمثالثي رئيس، بل ويحكم العالم العربي بمعنى ما» كما يقول إدوار سعيد (تأملات في المنفى، ص 102). هذا وان القضية الفلسطينية هي التي عربته كما يقول الجابري في الجزء الثاني من الكتاب الذي كرسه له (ص 32). وفي ضوء هذا المنظور لا يتوانى العروي عن الحديث عما ينعته بـ«النقص الإيديولوجي» الذي كان وراء فشل تجربة المهدي بن بركة (إلى جانب تجربة عبد الناصر وأحمد بن بلة)، ودونما أي اكتراث بأن الرجل كان مشدودا إلى «العمل» و«الفعل». ثم إن رجلا من هذا النوع، ورغم مؤهلاته التي لا ينكرها العروي نفسه، لا يمكنه التفرغ لـ«الطرح النظري» أو «الماركسية كنظام فكري». وقد يظل قدر الماركسي، في العالم الثالث، كما يمكن أن يستخلص من تحليل العروي، هو «النتف المبسطة» لا «الأصول النظرية»، وألا يمكن أن نرد على نقد العروي، وفي حال المهدي بن بركة نفسه، بقراءة أخرى تحيل إلى مرجعية مغايرة؟

المهدي بن بركة

* ناقد وكاتب من المغرب

قراءة في مجموعة «نعناع.. شمع.. وموت» للقاصة المغربية منى وفيق:

المحكي الخارج من الأعضاء

إبراهيم الحجري*

■ أخرجت القاصة المغربية منى وفيق منجزها السردي القصصي من ردهات الظل الصعب إلى الضوء الأصعب الباحث عن لحظة حلُمية لمعانقة المتلقي، وذلك من خلال انعتاقها من عنق الزجاجة التي يجد القاص خاصة والمبدع بصفة عامة نفسه مطالبا بعبورها إن هو أراد المضي قدما إلى الأمام، ليس ليعرفه الآخرون فحسب، بل ليورط نفسه أكثر في هذا العالم الذي اختاره أو فرض عليه أو وجد نفسه بالصدفة في صميم وحله، هذا العنق ـ المعبر الصعب هو النشر، وليس أي نشر، نشر الذات على حبل الغسيل، نشر كتاب يتضمن غسيلا للآخر قبل أن يكون غسيلا للذات، ذاك الآخر الذي يفرض عليك أن تدخل معه في علاقات وتماسات كهربائية وغير كهربائية، حارة وباردة، لأنه ببساطة يفرض عليك أن تتمثله، وإن لم تتمثله سيتمثلك، شئت أم أبيت. من هذا المنظور القبلي الذي يفرض نفسه تنطلق البذرة الأولى للسؤال المؤرق، السؤال الذي يؤجج رغبة الذات في معانقة المكتوب، في الاستعاضة عما ينفلت من اليد المثقوبة والذاكرة المثقوبة والقلب المجروح والعقل المتهدل بحياة أخرى متوهمة، تخلق نفسها من هذا الذوبان ومن هذا السخط ومن هذا الوعي.

ومنذ اللحظة الأولى، منذ العتبة الأولى، تبين الكاتبة عن نفسية قلقة تتجلى خيبتها أو بالأحرى خيباتها من خلال تفاريج العنونة التي تحتوي ثلاث مقولات جوهرية قد لا يربط بينها سوى هذا التشظي نفسه: النعناع المحيل على لحظات الانتشاء والسعادة والدفء العائلي، الشمع المحيل على النور الذي يطارد الظلام ويحاربه، ثم الموت الذي يرخي سدوله القاسية على الوجه الصافي الطاهر الوضيء للحسناء الطفلة التي تقبِّل الورد وتنظر إلى الزمن الموحش بعينين مطفأتين وذهول ساذج وبدائي. وتجاور هذه المقولات المتنافرة مؤشر على طبيعة الصراع الذي ستصبغ أجواء المجموعة القصصية الأولى لمنى وفيق؛ فوجه الغلاف وما يضج فيه من حركية ودينامية لمجموعة من العلائم والمؤشرات يجعلنا نشتم رائحة ما تهب من الداخل، ويحرض فينا رغبة تقشير المكتوب بحثا عما يضيء الدلالات المتناغمة مع الفرضيات التي توحي بها هذه المؤشرات الطافحة على وجه العتبات النصية. إن العنوان بما يحمل من وقع عميق في النفس، بقدر ما يخاطب في الذات وجدانها، وبقدر ما ينفتح على الدوال، يتسع أيضا ليحمل مفارقات سيميائية غريبة، على المتلقي أن يتعب نفسه من أجل بلورة تصور خاص يقرب المقولات من بعضها لتتمظهر الصلات الدلالية التي تربطها بالنصوص الداخلية أو تحيل عليها أو تصلها بالرؤيا العامة التي تحكمها، وعموما تحيل هذه المؤشرات بما يكفي، على دلالات الصراع بين الحياة والموت في أكلح مظاهر الدرامية.

وتتشكل المجموعة من عشرين نصا قصصيا تتنوع طبيعته بين القصر والطول، وتختلف درجات توتر الذات فيه، مثلما يحضر الجانب البراني أو يغيب، وإيقاع هذا التردد frequence تتحكم فيه عدة عوامل متداخلة يتضام فيها ما هو خارج الذات بما يأتلق بداخلها من أحاسيس متنوعة، فالأكيد أن النصوص لم تكتب في وقت واحد؛ ولا في طقس واحد؛ ولا في درجة واحدة من التحول الوجداني، ولا حتى في الموضوعات الموحدة. ولعمري إن هذا شيء لا بد منه أثناء تشكل مجموعة من النصوص بين دفتي كتاب واحد ومجموعة واحدة، هذا ما يمنحها أبعادا أخرى ودلالات إضافية.

وأول ما تجب الإشارة إليه أن الكاتبة اختارت أن تصدر مجموعتها في دار نشر عريقة بأرض الكنانة، وكان بإمكانها أن تختار أي دار نشر مغربية، لكن لهذا أيضا قراءة معينة ما دام أنه من حق الكاتبة أن تتشبث بحقها في وضع مولودها البكر أنى تشاء، ولعل الكاتبة اشتمت رائحة ما تعج بها أسواق المغرب الثقافية بحماتها المتفسخة وعلاقاتها الربحية وعقليات عناصرها التجارية المحضة، فهربت إلى الشرق باحثة عن سوق أرحم وملاذ يضمن القليل من الاحترام والتقدير للمولود، ومنتجع ذي ظلال سمحة تليق بمولود بكر تضعه طفلة تقبل على الحياة ببسمة الميلاد التي تلي الصرخة مباشرة «أحسني طفلة بعد أن رحل والدي.. كثيرون يكبرون أضعاف عمرهم الحقيقي إذا فقدوا أقرب ذويهم. أنا عكسهم، أشعر أنني طفلة صغيرة جدا» ص 20,

وإذا ما توغلنا قليلا في المنجز سرعان ما نكتشف ذات الكاتبة التي يطفح بها النص، وإن كابدت من أجل أن تخفي روحها التي يشنقها الضباب العكر، إلا أن البنيات الدلالية الضمنية تفضح عري الذات ومعاناتها أمام قهر سوسيو ثقافي عنيف «جزعة أنا.. مصدومة.. غارقة في حزني أيضا. أي تفرد أحسه.

العالم القاسي المجوسي هذا يبدو صامتا وحزينا إلا من نعيق الغربان والبوم في الخرائب» ص 19, إن هذا التبئير للقلق الوجودي يمنح المجموعة صبغة التذويت للعالم القاسي الذي يستجمع ذروة جبروته في الذات ليمزقها إربا إربا، ومع ذلك فالراوية ـ الطفلة لا تستسلم، حيث تواصل العناد بنثر الورد في وجه العوائق الشائكة التي تقض المضجع وتفتك بالروح، ولعل مجرد فعل الكتابة يعتبر صنفا من صنوف المقاومة العنيدة لوطء الزمن، إضافة إلى الطريقة البسيطة التي تتأمل بها الراوية ـ الطفلة الوجود وعناصره المشكلة للمحيط، فهي تناور في غير تصادم تماما كما يليق بطفلة لا تعرف طبيعة الذئب فتحاربه بالورد فكلما هش في وجهها ألقت في وجهه وردة وضحكت. وهذا يشكل السخرية المضادة التي تحارب بها الذات عالما من البغي أقوى منها، ومع ذلك لا تمثل الذات الراوية المشاركة ـ غالبا ـ في القصة ذاك البطل الإشكالي المبالغ فيه، إنها تعاند بما تمتلك من قوى وتجانب حين يكون ذلك ممتعا للغاية وتهادن متى كانت الريح هوجاء.

ونستطيع أن نقول إن منى وفيق تحترم آليات السرد، لكونها تحكي وتغرق في الحكي، بعيدا عن استيهامات الذات التي تنغل في منجزات الكثير من قصاصينا المغاربة على الخصوص، وتتخذ من ذاكرتها وماضيها ـ الذي يكاد لا يختلف عن ماضينا المشترك ـ متكأ لتوسيع دائرة المحكي، مما يجعل كائنات العالم النصي تتحرك في فورة وكأنما هي تتحرك في واقع يحدث لأول مرة في الكون، بتلقائية، وهذا ما يفرض مقولة أن هناك سرداً حقيقياً تعززه الحضورات المتعددة لمكونات النص القصصي مع الحرص على إبراز العنصر الذاتي في اللغة والبناء، أما الشخصية السردية فتبرز هنا بشكلها الرمزي الذي لا ينجلي إلا بتكرر السمات التيماتيكية سيميائيا، إذ في الغالب يشار إلى الشخصية بصفاتها وعلاماتها البيولوجية أو النفسية أو الاجتماعية، وهذا يدل على أن الكتابة تريد أن تسمو بعالمها عن الواقعي والإقليمي والجغرافي إلى مسافات أعلى من الكونية والإنسانية، وهذا حلم أي كاتب. ولا بد أن أشير هنا إلى ملاحظة أساسية وهي كون منى وفيق لا تنشغل كثيرا بهم الجنس، ولا يهم كثيرا أن تحول تجربتها إلى ما يشبه صراخ الأنثى المقهورة كما تفعل أغلب الكاتبات المغربيات الأخريات، بل ترتقي بعالمها الحكائي إلى تضمن التجربة الإنسانية في عموميتها دون استثناء، غير عابئة بالفروقات الجنسية الفيزيقية التي تعمي الفرد أحيانا عن أن يرى العناصر الجوهرية في القضية الإنسانية، أما الكتابات النسائية الأخرى المجايلة فأغلبها تنساق خلف القضية الذاتية، قضية الأنثى التي ـ في نظري ـ لا تتميز عن قضية الرجل الذي ليس بأحسن حال في هذا الواقع المشبع بالفضيحة، وبالتالي حكمت على نفسها بأن تظل بوحا شخصيا سرعان ما يتلاشى بذوبان اللحظة وانتهاء القضية، قضية الذات (المرأة) في صراعها مع الآخر (الرجل)، فالقضية الإبداعية أكبر من أن تختزل في شكوى أو صرخة ذات مفجوعة أو بوح شعوري، إنها قضية آدم في صبغته البدئية وحلمه الجنيني الذي لن يتحقق أبدا. إن المروي له الضمني تارة يكون ذكرا وتارة يكون أنثى مما يعزز ذهابنا إلى كون الكاتبة منشغلة بالإنسان في بعده الكوني الوجودي، وتستعين في سبيل الوصول إلى ذلك بذكر مجموعة من أسماء الأعلام الذين تركوا بصماتهم في الحضارة الإنسانية «الحلاج، نيتشه، لافونتين، جون ريفنسكروفت، لوركا...»، ولعل الغاية من حضور هؤلاء في النصوص هو الجهر بما لم يُقل أصلا، فهذه الأسماء لا تحضر كترف أو كموضة، بل تحضر كتجربة إنسانية لها ما يبررها في هذا المقام. إن الانتقال من الحكي عن الذات إلى الحكي عن الأنت هو تبئير للمروي له بشكليه الضمني والصريح، الغائب والظاهر، وبين الأنا والأنت، في هذه المسافة الضيقة تتجلى الطريق الوعثاء التي تخنق الذات الكاتبة نفسها، إذ تذوب الأنا في الأنت لتصبح الدلالة واحدة بالرغم من تعدد الضمائر، ويعزى هذا إلى إحساس الذات بالتشظي والاغتراب «جزعة أنا.. مصدومة.. غارقة في حزني أيضا». ص 19. وتنطلق شقاوة الذات في النص من خيبة الطفلة في معانقه العطف الأبوي، إذ سرق الموت حلمها ليعيدها إلى طفولة أبدية، فيغدو العبور الزمكاني مجرد فكرة سرابية لا أثر لها في الذات ما دام التغيير لاغيا في منظومتها، ويظهر ذلك في مجموعة من المؤشرات التي تحضر في المنجز النصي «غدوت أنتظر اليوم السابق لأفهم أكثر» ص 29، «اللاشيء واللاوقت» ص29، «عند اليوم الثالث/الأول» ص30، «أخبرني أحدهم لاحقا في اليوم الصفر حيث لا نهايات ولا بدايات» ص 31. وانتفاء صيغ الزمن هذا، يحيل على حيرة الذات داخل الذات واغترابها الزماني، حيث لا زمن ولا مكان. والظاهر أن القصص في هذا المنجز مع أنها تحترم البناء القصصي وبنى السرد عموما، فهي تطعم ـ من الداخل ـ ذاتها بالجديد، بالنوع الشعري، وتفتح جسدها للآخر، للهجانة الجميلة التي تمنح المعنى. كما أن التفكير في شكل الكتابة يحضر أيضا بوصفه تيمة من التيمات المعالجة نصيا، وهو سؤال يجسد صراع المبدع مع المبتدع ويمظهر عملية الخلق العسيرة التي تولد من رحم الكون كونا آخر مغايراً، بحثا عن الطهر وعن عالم لا تلوثه قوانين البشر الآثمة، ولهذا ترحل الذات عبر الذاكرة لتستلهم عالم الطفولة الذي بقدرما يتلون بالطهر تغلفه سذاجة البدء وبساطة التفكير الأول ورهافة الانطباع الأول عن سر الاصطدام بالعالم القاسي.

وتتناص الكتابة مع محيطها المتعدد المرجعيات، ومع لغته المهجنة، وأقواله المأثورة «كبرها تصغار» ص 91، وهي عملية تدل على خبرة القاصة منى بواقعها وحفظها ـ عن ظهر قلب ـ لتفاصيل ذاكرته المشروخة، الحبلى بالحكم والحزن والألم. كما أن الكاتبة تستنطق المسكوكات وتحرك الجوامد وتنفخ فيها الروح مانحة نصوصها العالم الدينامي الذي لا يليق إلا بنص متميز تكتسي فيه الأكوان بحيوات جديدة مميزة، هذا النص سواء كان ينتمي إلى القصة القصيرة جدا أو إلى القصة الطويلة، فإن وعي الكاتبة بما تكتب جعلها تقبض على الخيوط الناظمة بين العناصر الجوهرية للكل، وتراعي الفواصل الواصلة بين المصوغتين.

هكذا نقول إن منى وفيق تثبت قدميها بقوة في مسار القص المغربي مانحة إياه ثراء مميزا وتعددا دالا، من شأنه أن يرفع الستارات عن رؤى جديدة ما كانت لتتبدى أو تتكشف من قبل، وهذا المنجز إن وضع في إطاره اللائق جنب منجزات الأديبات المغربيات الأخريات من الأجيال المتفاوتة قد يفتح للباحث كوى جديدة للإطلال على عوالم المرأة المحاطة بالكثير من الأسيجة والغشاوات.

* قاص وناقد من المغرب

سامحوني.. جثتان هذه المرة فقط

محمد أبو زيد *

(1)

سمتني أمي: ابن موت، ثم ماتت
فظل أبي عشرة أعوام لا يراني
رغم أني أقاسمه السرير
ولا أناديه: يا أبي
رغم أني أقاسمه الخرس
المرة الوحيدة:
حين خلع الحائط من خلف صورة أمي
وحط بدلا منه
شهادة الوفاة المعتمدة
قبل ان اكلمه
كان يخطط لإطفاء النور
حتى لا يستدل صوتي عليه في العتمة
وهمس لملاءة السرير الجديدة:
«الحائط الذي أمام البيت
يجب أن يهدم
ويقام بدلا منه صرح»
لعلي أطلع إلى برج القاهرة.
ثم ألقي إليّ فأسا شج رأسي نصفين
الدم الذي سال كعلامة النصر
استقبلوه في كاسات ملونة ببهجة
دون أن يفكروا في إخفاء جثتي
أو نشر نعي مناسب
أو التفكير ـ على الأقل ـ
بزيارة ضريح جمال عبد الناصر

(2)

أمي..
رسمت بدمي قمرا غير مكتمل
وتركت النصف الآخر من القارة مظلما
حتى سموهم الزنوج
اشتكوها لطوب الارض
فتنصل: لا أعدكم بشيء
أمي..
كانت تتمرن يوميا على الطريق الى القبر
حتى لا تتوه فيما بعد
وكنت أسير وراءها
لاحسا التراب بلساني
مدعيا الطيران تحت الارض
خنقت ذات مرة كتكوتين
واخفيتهما تحت إبطي
أمي قالت: إبن موت
فظللت أبكي حتى خرجوا بها
وعندما عادوا بالنعش فارغا
كان الكتكوتان اللذان تحت إبطي
قد منحاني ريشهما عن رضا
فسموني: عباس بن فرناس الثاني
أبي:
كان من هواة صيد العصافير
والشعراء الذين تنبت لهم قصائد
في أجنحتهم
ليخربشوا بها الهواء.
أبي:
لم يميز ملامحي
ولم يسمع «بوم، بوم»
فقط
نفخ في مقدمة البندقية
كما يرى في الافلام الامريكية، وهو
يتحسس زنادها
بطرف اصبعه
فقط
هرول حتى الجثة الملقاة
«كان ميتا أصلا»
قال أبي.
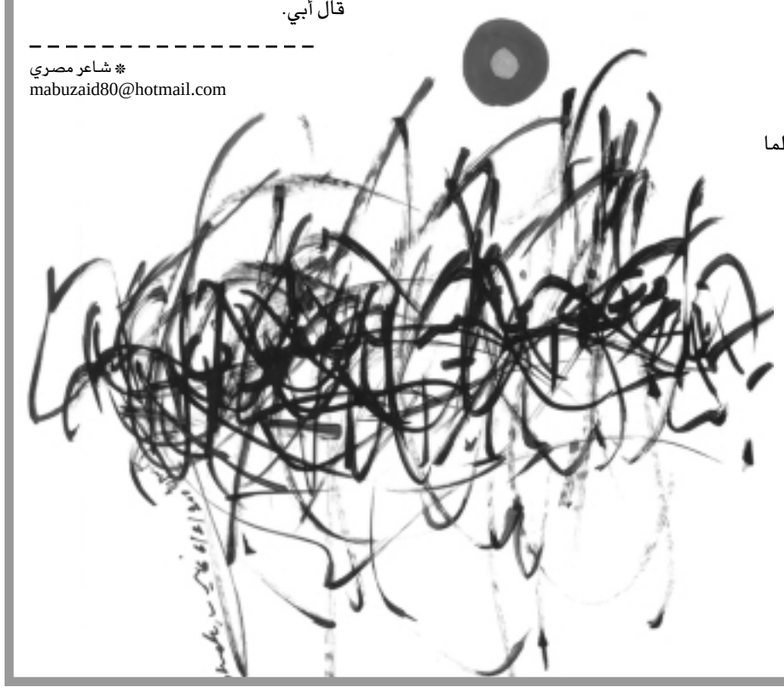
* شاعر مصري
mabuzaid80@hotmail.com